

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾

اتَّقِ الله : دُمْ على تقواه أو ازدد منها .

وَكِيلًا : حافظاً مفوضاً إليه كل أمر .

لقد كان رسول الإسلام - ﷺ - داعياً إلى الحق الخالص .. وإن مَنْ ينهض داعياً إلى الحق الخالص في هذه الدنيا ، تواجهه ظروف قاسية وأوضاع مثبطة للغاية .. حيث إنه يعود "غريباً" في مجتمعه بكل معنى الكلمة ، فالناس من حوله بين محبٍ للدنيا لا يروقه دين الداعي القائم أساساً على حب الآخرة ، وبين نفعيٍّ مسابير لتيار العصر تتعارض مصالحه مع ما يدعوه إليه الداعي من التجرد والإخلاص الكامل للحق وحده .. ومنهم مَنْ يكون قد أحال الدين "ملحقاً" بمذهبه القومي ، بينما يطالب الداعي بإقامة الدين على أساس من العبودية الإلهية المحضة .

وفي هذه الحالة لو أن الداعي خضع واستسلم لضغوط البيئة ، لوجد في الناس كثيراً من الأعوان والأنصار يلتفون حوله ويقفون إلى جانبه . أما لو أنه ثبت على الحق الخالص ، لم يترك من دون الله ناصراً ولا معيناً ، وليس للداعي ، بأي حالٍ من الأحوال ، أن يختار الطريق الأول : طريق الاستسلام والمداهنة . وإنما يتعين عليه أن يثبت على الحق الخالص معتمداً على الله ، واثقاً من أنه تعالى حكيم وعليم ، سينصر

عبده بكل تأكيد ، ولن يخذله أبداً !!

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۚ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢﴾ ﴾

تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ : تحرمون كحرمة أمهاتكم .

أَدْعِيَاءَكُمْ : من تتبنونهم من أبناء غيركم .

أَقْسَطُ : أعدل .

وَمَوَالِيكُمْ : أولياؤكم في الدين .

إن عدم امتلاك المرء لقلبين اثنين في جوفه ، مما يدل على أن التناقض الفكري لا يتفق وشروع الله التكويني . ولئن كان الإنسان قد مُنح قلباً واحداً ؛ فإن فكره هو الآخر ينبغي أن يكون واحداً ليس غير ، فمن المستحيل أن يكون قلب واحد ملتقى نقيضين في آنٍ واحدٍ : بأن يجمع بين الإخلاص والنفاق ، وبين عبادة الله ، وعبادة الدنيا ، وبين العدل والظلم ، وبين الكبر والتواضع .. إلخ .

إذ المرء لا يسعه إلا أن يكون إلى أحد الجانبين ، وينبغي عليه بالأحرى أن يكون

كذلك !!

هذا أمر مبدئي ، تندرج تحته بعض التقاليد التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي

مثل : الظهار والتبني، فقد كان من عادة العرب في الجاهلية أن الرجل إذا قال لزوجته :

"أنت عليّ كظهر أمي" طلقت منه، وصارت محرمة عليه إلى الأبد كما تكون الأم محرمةً على ابنها، وسُمي هذا ظهاراً. وهكذا كان اعتقادهم في الولد المتبني أنه يصير كابن الرجل من صلبه، وكانوا بالتالي يُجرون عليه أحكام الابن الحقيقي نفسها. وقد أبطل القرآن الكريم هذه العادة الخرافية من الأساس، وأعلن صراحةً: أنه لما يتنافى تماماً مع النظام التكويني الفطري أن تصبح الزوجة - المظاهر منها - كالأم الحقيقية، أو يمسي المتبني كالابن الصُلبي سواء بسواء.

وإن الله سبحانه ليعفو عن الأخطاء ما دامت هي صادرةً عن جهالةٍ وعدم العلم. أما لو أصر المرء على مسلكه الخاطئ، حتى بالرغم من بيان حقيقة الأمر له على نحو واضح جلي، فإنه لا يعود بعدئذٍ جديراً بعفو الله وغفرانه!

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۖ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝﴾

أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ : أَرَأَفَ بِهِمْ ، وَأَنْفَعَ لَهُمْ .

وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ : مثلهن في تحريم نكاحهن وتعظيم حرمتهن .

وَأُولُوا الْأَرْحَامِ : ذُوو الْقَرَابَاتِ .

إن النبي في حياته شخصياً، وبعد وفاته مبدئياً، أحق بأهل الإيمان حتى من أنفسهم. فأمره ينبغي أن يكون مقدماً على كل أمرٍ، وحبّه يجب أن يفوق كل حبٍ؛ ذلك لأن النبي يكون مندوب الله في هذه الدنيا، ولكي ترسخ عظمة تعاليمه في النفوس، لا بد من أن يكون وجوده مقدساً في أنظار الناس، حتى تعتبر أزواجه بدورهن بمثابة أمهاتهم في التوقير والاحترام وحرمة النكاح.

وأما بقية أفراد الأمة ، بعد النبي وأزواجه الطاهرات ، فإن أساس علاقات التوارث وتقاضي الحقوق فيما بينهم أخذاً وعطاءً ، يقوم على القرابة الرحمية (النسبية) انطلاقاً من الأدنى فالأدنى . وقد يمكن ، بسبب بعض الضرورات الدينية الطارئة ، إقامة شركة مؤقتة في الحقوق مع غير ذوي الأرحام ، كما حدث في أول العهد المدني في أعقاب الهجرة النبوية من المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ، على أن ذوي الأرحام والقرابات النسبية هم الأولى ، والأحق بعضهم ببعض من حيث التنظيم الاجتماعي العتيد ، وسيظلون كذلك على الدوام!

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۖ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ ۖ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾

مِيثَاقُهُمْ : العهد على الوفاء بما حملوا .

مِيثَاقًا غَلِيظًا : عهداً قوياً على الوفاء .

إن المشروع الذي خلق الله الإنسان بمقتضاه هو الامتحان ، أي إيسكانه في بيئة حرة مع تزويده بكل أسباب الحياة في العالم الراهن ، ثم مجازاة كل إنسان بما صنع ، إن خيراً فنعيم أبدي ، وإن شراً فعذاب أبدي .

ونوعية الحياة الامتحانية هذه تقتضي بالضرورة أن يتم إعلام الإنسان بالوضع الحقيقي على أكمل وجه ، ولهذا الغرض ذاته أجرى الله سبحانه وتعالى سلسلة النبوة والرسالة . وليست النبوة إعلاناً بواسطة مكبر الصوت ، بل إنها مهمة باهظة التكاليف تتطلب غاية الصبر . ومن ثم أخذ من كل الأنبياء والمرسلين هذا الميثاق المؤكد الغليظ بأنهم سيقومون بأداء مهمة تبليغ الرسالة الخطيرة هذه مع رعاية جميع شروطها وآدابها ،

ولن يدخروا أي جهد في سبيل الوفاء بمقتضياتها أبداً!!

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٠﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١١﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١٢﴾﴾

جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ : الأحزاب يوم الخندق سنة خمس .

زَاغَتِ الْأَبْصَارُ : مالت عن سننها حيرة ودهشة .

وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ : نهايات الحلاقيم (تمثيل لشدة الخوف) .

ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ : اختبروا بالشدائد ومحصوا .

وَزُلْزِلُوا : اضطربوا كثيرا من شدة الفزع .

كانت غزوة الأحزاب (عام ٥ من الهجرة) غارة مشتركة من قبائل العرب واليهود على المدينة، وكان عدد المغيرين فيها زهاء اثني عشر ألفاً، ولم يكن المسلمون قادرين على الالتحام مع هذه الجيوش الضخمة، بيد أن الله تعالى أدخل إلى قلوب الأعداء -بتدابيره الخاصة - رعباً جعلهم ينصرفون بأنفسهم عن أطراف المدينة بعد حصارهم إياها قريباً من شهر، وإن مثل هذه الأحوال الشديدة إنما تواجه الدعوة الإسلامية لكي تميز المخلص من جماعة المسلمين من غير المخلص، وثانياً : لتعلم القوى المعادية أن الله يتولى بنفسه حماية دينه، وأنه لن يدعه يُقهر ويُغلب على أمره أبداً!

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴿١٤﴾ وَيَسْتَعْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ

النَّبِيِّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦٦﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّوهُ إِلَّا الذَّبَرُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿٦٨﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٩﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٠﴾

غُرُورًا : قولاً باطلاً . أو خداعاً .

يَثْرِبُ : اسم المدينة المنورة قديماً .

لَا مَقَامَ لَكُمْ : لا إقامة لكم ههنا .

إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ : قاصية يُخْشَى عليها العدو .

فِرَارًا : هرباً من القتال مع المؤمنين .

مِنْ أَقْطَارِهَا : نواحيها وجوانبها .

سُئِلُوا الْفِتْنَةَ : طلب منهم مقاتلة المسلمين .

وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا : ما أخرجوا المقاتلة .

يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ : يمنعكم من قدرة الله تعالى .

طارت نفوس المنافقين شعاعاً لما عرفوا مبلغ الخطر المحقق في غزوة الأحزاب .. وراحوا يبحثون عن المهرب للفرار بأنفسهم ، وأما أهل الإيمان الصادقون فقد ظلوا صامدين اعتماداً على الله ؛ لكونهم يعلمون جيداً أنه ليس أمامهم سوى الله ، وليس وراءهم سوى الله كذلك ، إذأ ، فالفرار من خطر أعداء الإسلام تعريض للنفس لبطش الله الذي عذابه أشد وعاقبته

أوخم .. وقد كانت أفئدتهم مشحونة بيقين يؤكد لهم: إننا لو ثبتنا في مواجهة العدو، لجاءنا نصر من الله وفتح قريب ، أما لو فررنا هاربين من جبهة الدفاع عن حمى الإسلام ، فإننا لن نستطيع إنقاذ أنفسنا آخر الأمر من الخزي والدمار حتى في هذه الدنيا، فضلاً عما سنلقاه في الآخرة من عقاب الله الشديد!

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعُوقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ أَسْحَةٌ عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَنَةِ ۖ حَدَادٍ أَسْحَةٌ عَلَى الْخَيْرِ ۖ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ تَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾

الْمَعُوقِينَ مِنْكُمْ : المشبطين منكم عن الرسول ﷺ .

هَلُمَّ إِلَيْنَا : أقبلوا أو قربوا أنفسكم إلينا .

الْبَأْسَ : الحرب والقتال .

أَسْحَةٌ عَلَيْكُمْ : بخلاء عليكم بكل ما ينفعكم .

يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ : تصيبه الغشية من سكراته .

سَلَقُوكُمْ : آذوكم ورموكم .

بِاللِّسَنَةِ حَدَادٍ : ذربة سليطة قاطعة كالحديد .

أَسْحَةٌ عَلَى الْخَيْرِ : بخلاء حريصين على المال والغنيمة .

فَأَحْبَطَ اللَّهُ : فأبطل الله .

بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ : كانوا معهم في البادية .

هناك رجل لو تخلف أو تهاون يوماً في الاستجابة لداعي الفداء والتضحية، لاعتراه ندم يعقد لسانه ، وآخر لا يتقدم للفداء والتضحية حين يُدعى إليها فحسب، بل يسعى لصدد الآخرين عنها كذلك ، إن هذا إضافة التمرد إلى جانب التهاون ، وقد يمكن أن يقابل التهاون بالعفو ، ولكن التمرد غير جدير بالعفو البتة .

والذين تنطوي نفوسهم على التمرد والعناد ، لا قيمة لأعمالهم ولا يقام لها وزن .. حتى لو كانت صالحةً طيبةً في ظاهر الأمر ، فإن روح العمل الأصيل هو الإخلاص ، وهو الذي تخلو منه قلوب القوم كل الخلو .

وعدم التضحية للدين يكون دوماً نتيجة حب الدنيا ؛ فالمرء يفقد دينه من أجل الحفاظ على دنياه ؛ ومن ثم فحيثما يجد أمثال هذا أن الدين قد اقترنت به بعض الفوائد الدنيوية أيضاً ، فإنهم يلجؤون هناك إلى استخدام مهارتهم الكلامية ، لكي يتمكنوا من الحصول على أوفر قسطٍ من المغانم إيهاماً للمؤمنين بأن صلتهم بالدين لا تقل عن أحدهم متانةً بل تزيد ، وغيرتهم عليه مثل غيرتهم بل أشد ، وأما حيث يكون معنى الدين هو التضحية فلا يشعرون هناك بحاجة أو رغبة ما في إظهار التدين !

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۚ ۝١١ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ۖ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۚ ۝١٢ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصَدَقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ ۖ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٣ ﴾

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ : قدوة صالحة في كل الأمور .

قَضَى نَحْبَهُ : وفي بَنَدَرِهِ . أو مات شهيدا .

إن حياة الرسول وأصحابه تمثل نموذجا دائما للحياة العابدة لله يحتذي به أهل الإيمان إلى يوم القيامة .. إنها نموذج نتبين من خلاله ماذا يعني رجاء الله واليوم الآخر، وما معنى ذكر الله كثيرا، وما الصمود في وجه المآزق الحرجة والظروف الصعبة، وكيف تكون الثقة في مواعيد الله، وما الإيمان الذي ينمو ويتجدد دائما، وكيف السبيل إلى الفوز به .. وما أسلوب الوفاء بالعهد الذي يعاهد المؤمن عليه ربه !؟

ولقد قدّم الرسول وأصحابه أرفع نموذج عملي لهذه المعاني كلها، فما وهنوا ولا ضعفوا ولا استكانوا في أحلك الظروف وأحرج الساعات . وقد أقاموا الدليل الباهر على الفكر الإسلامي والخلق الإسلامي في كل الشؤون والقضايا التي عاجلها أفرادا وجماعات .. وكانوا متمسكين بالحق قبل أن يمتحنوا، كما ظلوا ثابتين على جادة الحق حتى في أثناء المحنة وبعدها، لم يحيدوا عنها قيد شعرة.

ثم إن حياة الرسول وأصحابه هي أيضاً النموذج الحي لحقيقة أن مصير فرد أو جماعة ما لا يتقرر عند الله بدون امتحان، فقد جرت سنة الله بخلق الظروف القاسية والأزمات لكي يتميز المؤمنون الصادقون من المدّعين الكاذبين، ولم يكن في هذه السنة الإلهية أي استثناء من قبل، ولن يكون هناك أي استثناء فيها .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْثُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ ﴾

الَّذِينَ ظَاهَرُواهُمْ : يهود قريظة الذين عاونوا الأحزاب .

صَيَّا صِيْهِمْ : حصونهم ومعقلهم .

الرُّعْبَ : الخوف الشديد .

كانت الظروف في غزوة الخندق (الأحزاب) قد بلغت منتهى الشدة ، ولكن لم تندلع هناك نار الحرب الفعلية بين الفريقين ، حيث كفى الله المؤمنين القتال بأن أرسل ريحاً عاصفةً هوجاء وجنوداً من الملائكة ملأت قلوب الأعداء ذعراً ويأساً دفعهم إلى الانسحاب والعودة على أدراجهم . وقد كان لليهود المدينة (بني قريظة) مع المسلمين عهد المواعدة ، ولكنهم غدروا في تلك الساعة الحرجة ، فنقضوا العهد وانضموا إلى صفوف المشركين .

فلما انصرفت حشود المهاجرين عن المدينة ، زحف رسول الله - ﷺ - بأمر من الله على مستوطنات بني قريظة ، حيث ضرب المسلمون حصاراً مشدوداً حول حصونهم وقلاعهم ، وظل هذا الحصار خمساً وعشرين ليلةً ، إلى أن تم تحكيم سعد بن معاذ بناء على طلب سادة بني قريظة أنفسهم ، وقد حكم سعد بن معاذ فيهم ما هو مقرر في شريعة التوراة نفسها للمجرمين أمثالهم ، أي أن يقتل شبانهم ، وتسبى نساؤهم وأطفالهم ، وتصادر أموالهم وعقاراتهم !!^(١)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۖ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۖ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۖ﴾

(١) انظر : سفر التثية ٢٠ : ١٠ - ١٤ .

أُمْتُعْكُنَّ : أعطيكُن متعة الطلاق .

وَأَسْرَحُكُنَّ : أطلقكُن .

سَرَّاحًا جَمِيلًا : طلاقا حسنا لا ضرار فيه .

بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ : بمعصية كبيرة ظاهرة القبح .

تعطلت أنشطة المسلمين التجارية بسبب الهجرة ، هذا إلى جانب أنهم دخلوا في سلسلة حروب متصلة أضرمها أعداء الإسلام ، وترتب على ذلك أن بلغت حالة المسلمين الاقتصادية منتهى السوء والتردي ، وقد انعكست آثار ذلك على بيت الرسول - ﷺ - في أسوأ مظاهرها، حيث صار من المتعذر عليه حتى القيام بتوفير الحاجيات الأساسية اللازمة لأهله .. إلى أن بدأت أزواجه - عليه الصلاة والسلام - في مطالبته بالزيادة في نفقاتهن .

إن الأزواج المطهرات لم يطالبن إلا بالنفقة الضرورية، ولكن الله سبحانه عبر عنها بزينة الحياة الدنيا ، وهذا في الحقيقة شدة في الإظهار ، كما أن كلمة "الفاحشة" هي الأخرى إنما جاءت هنا للغرض نفسه ، فقد كان رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - مكلفاً بتكميل أعظم رسالة في التاريخ البشري، ألا وهي القضاء على عصر الشرك ، وتأسيس عصر التوحيد ، وبالتالي كان مستحيلاً عليه - والحالة هذه - أن يعطي الأهمية لأي شيء آخر في حياته؛ ومن ثم نزل الوحي بخير زوجات الرسول بين أمرين لا ثالث لهما: إما مرافقته - عليه الصلاة والسلام - بالصبر والقناعة ، أو مفارقتة بالمعروف والإحسان ، أما إحراج الرسول وتشيت فكره بإثارة النزاعات العائلية ، فذلك ما لا يُحتمل بأي حالٍ من الأحوال !

﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا

لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٥٠﴾ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥١﴾

يَقْنُتُ مِنْكُنَّ : تطع أو تخضع منكن .

فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ : لا تلن القول ولا ترققنه للرجال .

إن نساء النبي كن يتمتعن بمكانة شبه قيادية في المجتمع . والقيادة مسئولية باهظة التكاليف ، حيث يضطر أصحابها في سبيل الخضوع للحق إلى تقديم تضحية أكبر من الرجل العادي ، ولهذا السبب وعد الله تعالى أمثال هؤلاء بالأجر المضاعف ، فلئن كان هؤلاء يستخدمون للعمل قوة إرادية أكثر بالقياس إلى غيرهم ، فإنهم يستحقون بالطبع أن ينالوا على أعمالهم جزاءً أكثر وأوفر من الآخرين .

وقد كانت نساء النبي ، لمكانتهن الخصوصية هذه ، يتكرر اتصال الآخرين بهن من حينٍ إلى حينٍ ، إذ كان الناس كثيراً ما يختلفون إليهن للاستفسار في شتى الأمور الدينية .. ومن ثم أمرن بالتحدث إلى الآخرين بأسلوبٍ فيه شيء من الخشونة والجفاف ، وليس بأسلوب يتسم بالرقّة وعدم الكلفة كما يكون الحديث مع أحد الأقارب وذوي الأرحام !.

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ۚ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ﴿٥٢﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٥٣﴾

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ : الزمن بيوتكن وكذا جميع النساء .

وَلَا تَبَرَّجْنَ : لا تبدين الزينة الواجب سترها .

الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى : ما كان قبل الإسلام من الجهالات .

الرَّجَسَ : الذنب أو الإثم أو النقص .

وَالْحِكْمَةُ : هدي النبوة أو أحكام القرآن .

في خطابٍ موجهٍ إلى أزواج الرسول يرشد الله تعالى هنا نساء المسلمين إلى كيفية معاشرتهن في البيوت ، فينبغي لمن - مبدئياً - أن يقرن في بيوتهن ، وألا يتخذن من التبرج والترفل في الحلل والحلي مقصدهن في الحياة كشأن النسوة الغارقات في حب الدنيا المبهورات بزخارفها ، بل يجب أن يكون مركز اهتمامهن أن يصبحن عابداتٍ لله حقاً ، باذلاتٍ أمواهن في سبيل الله بسخاءٍ ، ويبادرن إلى امتثال أمر الله ورسوله في كل شئون الحياة ، صغيرها وكبيرها ؛ وافق هواهن أو خالفه ، ويقضين معظم أوقاتهن في الاستماع إلى أحاديث الله ورسوله وتدبر معانيها ، وهذا أسلوب للحياة والمعاشرة يجعل مَنْ يتبعه إنساناً طاهراً وإنما الإنسان الطاهر هو الذي يحبه الله ويقع عند الله موقع الرضا والقبول!

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٥٥ ﴾

وَالْقَانِتِينَ : المطيعين الخاضعين لله .

هذه الآية الكريمة تبين لنا ما هي الصفات التي يريد الله أن يراها في الرجال أو

النساء، إنها الصفات العشر التالية: الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصيام، والعفة، وذكر الله.

وإن هذه الكلمات العشر لم تدع جانباً من جوانب العقيدة الإسلامية والسلوك الإسلامي إلا احتوته، وخلاصتها أن كل شخص يرجو المغفرة والإنعام عند الله؛ ينبغي له أن يجعل من نفسه خاضعاً لأمر الله، وموقناً بالله، وأن ينقطع بوجوده كله لله، وأن تكون حياته خالية من التناقض بين القول والفعل، ويكون صامداً ثابتاً على الحق في كل الظروف والأحوال، وأن يكون الشعور بعظمة الله وجلاله قد جعله إنساناً متواضعاً؛ فصار يعد حتى القيام بسد حاجات الآخرين جزءاً من مسئوليته، ويهتم بالصيام الذي هو تربية لضبط النفس، وأن يكون عفيفاً طاهر الذيل في مواجهة الرغبات الشهوانية، وأن تصير آناء ليله وأطراف نهاره عامرةً بذكر الله سبحانه وتعالى. وهذه الأوصاف كما هي مطلوبة من الرجال، مطلوبة من النساء كذلك، ومع أن دائرة ممارسة هذه الأوصاف تختلف من جنسٍ إلى آخر من بعض النواحي، إلا أن الأوصاف نفسها متماثلة لكلا الجنسين على حدٍ سواء، فأيا امرأة أو رجلٍ لن يعد عند الله جديراً بالقبول إلا إذا وصل إليه تعالى متحلياً بالصفات العشر المذكورة أعلاه!!

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ۝﴾

الْخِيَرَةُ : الاختيار .

إن الإنسان خلق مختاراً؛ وهو مُطالب بتفويض اختياره هذا إلى الله. وذلك هو امتحان الإنسان الحقيقي في العالم الراهن. وإنما المهتدي إلى الصراط المستقيم حقاً هو الذي يجتاز هذا الامتحان الخطير بنجاح .

ومن الأمثلة على ذلك : واقعة زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش؛ فقد كان زيد عبداً مُعتقاً ، بينما كانت زينب - وهي ابنة أمة بنت عبد المطلب - تنتمي إلى أسرة عالية من قريش. ولما خطبها رسول الله - ﷺ - على مولاه زيد ، لم يرض أفراد أسرتها بذلك ، حتى امتنعت زينب بنفسها قائلةً : "أنا خير منه نسباً" ، ولكن حين ثلثت عليهم الآية القرآنية المذكورة ، أذعنوا من فورهم ؛ فتم زواجهما في العام الرابع من الهجرة ، تلك هي طبيعة الإسلام ، وما أحرأها أن تكون هي طبيعة كل مسلم ومسلمة !

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝٤٧﴾

وَطَرًا : حاجته المهمة كناية عن الطلاق .

حَرَجٌ : ضيق أو إثم .

أَدْعِيَائِهِمْ : من تبنوهم قبل نسخ التبني .

تزوج زيد من السيدة زينب في السنة الرابعة من الهجرة ، ولكنها كانا في حياتهما الزوجية كالتنوين والإضافة - إن جاز التعبير - فتعذر الوفاق بينهما ، مما أدى إلى الفصل بينهما في العام التالي ، ولما جاء زيد إلى رسول الله - ﷺ - يستأذنه في تطليق زوجته ، سأله عن السبب ، فأجاب قائلاً : "إنها تتعظم علي لشرفها" ، بيد أن النبي لم يسمح له بذلك بادئ ذي بدء وقال : أمسك عليك زوجك واتق الله ، ولكنه عندما تكررت شكواه ، وزاد إلحاحه ، أذن له آخر الأمر في أن يفارق زينب .

ومن خلال تزويج زينب من زيد كان قد تم القضاء أولاً على عادة متأصلة في

نفوس العرب ؛ قائمة على دوافع العصبية وحدها ، وهي أن الفوارق الاجتماعية لا ينبغي أن تقف عقبةً في طريق النكاح والزواج ، وأما بعد أن وقع الفصل بينهما ، فقد شاءت إرادة الله أن تكون هذه الحادثة سبباً في تحطيم عادة خاطئة أخرى .

فمن عادات العرب في الجاهلية أنهم كانوا يعتدّون المتبني كالابن الصلي تماماً ، وبالتالي كانوا يجرون عليه أحكامه حتى في الميراث وفي حرمة النسب والمصاهرة . ولهدم هذه العادة ربما لم تكن هناك من صورة عملية أفضل من أن يتم تزويج زينب من رسول الله - ﷺ - بعد تطليق زيد إياها ، حيث كان زيد مولى رسول الله تبناه ، حتى صار يُدعى زيد بن محمد ، وفي هذه الحالة كان زواجه - عليه الصلاة والسلام - من زوجة متبناه ، بمثابة انفجارٍ ضد هذه العادة ؛ إذ كانوا يعتقدون أن حليلة المتبني محرمة على الأب كحرمة حليلة ابنه الحقيقي .

وكان رسول الله - ﷺ - قد تم إعلامه مسبقاً بأن زينب ستدخل بعد أن يطلقها زيد في عداد أزواجه ، كوسيلة لإبطال هذه العادة الجاهلية ، وبما أن نكاحاً كهذا كان من شأنه أن يجعله عرضةً للطعن والتشويه في المجتمع القديم ، لذا فما زال رسول الله - ﷺ - ينصح زيداً بإمساك زوجته عليه ، عساه ، إن لم يطلقها ، أن يتخلص من هذه المحنة الشديدة ، بيد أن الأمر المقدر في العلم الإلهي لا بد أن يتحقق ، لا يحول دونه شيء ؛ فلم يلبث زيد أن طلق زينب ، التي زوّجت بعد ذلك من النبي - ﷺ - في عام ٥ من الهجرة ، كتدبيرٍ عملي لنقض تلك العادة البالية من أساسها !!

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٢٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٢٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ

رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٢٨﴾

فَرَضَ اللَّهُ لَهُ : قسم له أو قدر أو أحل له .

خَلَّوْا مِنْ قَبْلُ : مضوا من قبلك من الأنبياء .

قَدَرًا مَقْدُورًا : مراداً أزلاً أو قضاء مقضياً .

حَسِبًا : محاسباً على الأعمال .

وعقب هذا الحادث ، وكما كان متوقعاً ، بدأت الدعايات المغرضة ضده - عليه الصلاة والسلام - على قدم وساق ، ودار على ألسنة الناس أن محمداً تزوج حليمة ابنة ، بينما تكون حليمة الابن حراماً على أبيه ، فقال تعالى رداً على تلك الأقاويل : إن محمداً لم يُرزق من الولد سوى البنات ، وإنه ليس أباً أحده من الرجال ، أما زيد بن حارثة ، فإنها هو مولاه الذي تبناه ، ومتى كان المتبني ابناً حقيقياً ، حتى يكون الزواج من طليقته محرماً على من تبناه؟! .

ولم تعرض - عليه الصلاة والسلام - في حياته لهذه التقلبات وأحداث المد والجزر ، مع أنه كان رسول الله؟! .

وجواب ذلك : أن الرسول مع كونه يتلقى الوحي من الله سبحانه وتعالى إلا أنه ملزماً أن يعيش عيشة البشر العاديين ، فيواجهه في عالم الامتحان الراهن من الأحوال والظروف ما يواجهه الآخرون عداه ، ولولا ذلك ، لم تكن حياة النبي حجةً على عامة البشر ، وهذا هو السر في أن التوجيه النبوي إنما يُقدم في قالب الظروف الحقيقية ، وليس في قالب الظروف الخيالية المصطنعة ..

إن خاتم النبيين يعني حرفياً: هو الذي ختمت به النبوات والرسالات السماوية ، وكلمة "الخاتم" لا ترد بمعنى الطابع (Stamp) ، بل بمعنى المهر أو الختم (Seal) ، أي

العملية الختامية ، وختم الغلاف معناه إغلاقه بصورة نهائية لا يدخل إليه أو يخرج منه بعدها شيء ، ومن هنا تقول العرب : "خاتم القوم آخرهم" .

وإعلان كونه - عليه الصلاة والسلام - "خاتم النبيين" في سياق هذا الحادث ذاته ، إن دل على شيء فإنما يدل على أنه إذا كان لا نبي بعده ، صار من الضروري أن يتم إظهار كل الأحكام الإلهية والتوجيهات الربانية عن طريقه - ﷺ !

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝١٢﴾ حَيْثُ هُمْ يَوْمٌ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝١٣﴾
بُكْرَةً وَأَصِيلًا : أول النهار وآخره .

إن اعتناق الدين الحق ، لا سيما في بيئة يسودها الدين الزائف المغشوش ، يكون دوماً أصعب الأعمال على الإطلاق ، مما يجعل أهل الإيمان تغمرهم أحياناً مشاعر التذمر والخيبة واليأس ، وليس هناك لتفادي هذا الوضع غير طريق واحد ، ألا وهو تركيز الأنظار على الجانب الخلو الجميل الذي يكمن وراء المنغصات والمثبطات الظاهرة ..

الناس في الغالب يعيشون على الماديات ، أما المؤمن فإنه يُضطر إلى أن يعيش على الأفكار (Ideas) ، والعيش على مستوى الأفكار يعني أن يعيش المرء غارقاً في ذكر الله الدائم ، وتأخذ آذانه تلتقط همسات الملائكة غير المسموعة ، وينظر إلى الاكتشاف الفكري الذي يتوصل إليه في صورة الهدف الصحيح ، ينظر إليه على أنه هو الشيء الأكبر في الحياة ، ويمتلئ قلبه رضاءً وطمأنينة بما سيفوز به في الآخرة مقابل الدنيا يضحى بها في سبيل الحق !

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ۚ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾

إن "الشاهد"، و"المبشر"، و"النذير"، و"الداعي"، كلها كلمات تعبر عن جوانب مختلفة لحقيقة واحدة، ورسالة النبي تلخص في إعلام الناس بحقيقة الحياة، وإخبارهم بأحوال الجنة والنار، وهذه مهمة دعوية، وعلى أساس هذه المهمة الدعوية ذاتها سوف يدلي النبي بشهادته أمام محكمة الآخرة على أولئك الذين أبلغ إليهم أمر الحق في الدنيا؛ فمنهم سَنَ آسن به ومنهم مَن كفر وناصبه العداة .

ورسالة النبي هي نفسها رسالة الأمة المسلمة كذلك، وفي هذا الطريق لا بد من مواجهة شتى ألوان الأذى وضروب الإساءة من قبل الناس؛ فقد لا يخرج من بينهم نصير واحد للحق، وقد يقف بعضهم إلى جانبه ويناصره لبعض الوقت، ثم لا يلبث أن يتخلى عنه وينسحب هو الآخر مردداً بعض الألفاظ الكاذبة. وفي مثل هذه الأحوال فإن التوكل على الله وحده، هو العامل الوحيد الذي سن شأنه أن يُثبت أقدام النبي - أو الدعاة السائرين على هداة - على العمل الدعوي، فالصبر على أذى الناس والإعراض عن إساءاتهم، والتوجه الدائم إلى الله على كل حال، هما رأس مال العاملين في مجال الدعوة الإسلامية .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِّن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِّنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا ۖ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝﴾

سَرَاحًا جَمِيلًا: عاريا عن أذى ومنع واجب .

يتزوج رجل من امرأة ، ثم يطلقها قبل المساس أو الاتصال الزوجي ، فلا تجب العدة في هذه الحالة كما هو الشأن في حالات الطلاق العادية على أن من مقتضى الخلق الإسلامي أن تجري عملية التفريق بين الزوجين على نحو مهذب شريف تماماً كما جرت به عملية الاقتران بينهما ، فلئن كانت المرأة قد فرض لها مهر ، فعلى الزوج أن يدفع إليها نصف المهر المفروض ، وألا يودعها بإحسان بعد أن يمتعها بشيء حسب سعته ووفقاً للعرف السائد ، وللمرأة - إذا شاءت - حق في أن تتزوج بعد ذلك من أي رجل آخر على الفور ؛ حيث إنها غير ملزمة في هذه الحالة بقضاء العدة كما تقدم!

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٠﴾

آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ: أعطيتهن مهرهن .

أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ : رجعته إليك من الغنيمة .

لقد حُصر عدد الزوجات ، بالنسبة إلى عامة المسلمين ، في أربع لا يحل تجاوزه ، غير أن النبي - ﷺ - لم يكن ملزماً بهذا القيد ، حيث تزوج - عليه الصلاة والسلام - بإذن خصوصي من الله - سبحانه وتعالى - بأكثر من أربع نسوة . وقد كانت الحكمة من ذلك ألا يكون على الرسول أي نوع من الحرج أو المشقة .

والمراد بالمشقة هو المشقة في أداء المهمة النبوية ، فبالنظر إلى شتى الأغراض الدعوية والمقتضيات الإصلاحية والتعليمية كان رسول الله - ﷺ - يشعر بالحاجة إلى التزوج

بعدد أكثر من النساء ، وبناءً على هذه المصلحة الدينية ، لم يوجب الله عليه الاكتفاء بالأربع كما أوجهه على المؤمنين ، وعلى سبيل المثال فقد كانت الحكمة من زواجه بالسيدة عائشة أن تكون بصحبته الدائمة امرأة صغيرة السن حادة الذكاء قوية الحافظة لكي تنوم بعده - عليه الصلاة والسلام - بتعليم الناس أمور دينهم لمدة طويلة من الزمان ، ولقد ظلت السيدة عائشة بالفعل ، بعد وفاته - ﷺ - نصف قرن تقريباً ، تنقل للأمة أقواله وأخباره وأفعاله المنزلية كشریط مسجل حي ، كما نتج عن زواجه من السيدتين أم سلمة وأم حبيبة أن انتهت خصومة خالد بن الوليد وأبي سفيان بن حرب وخذت عداوتهما لرسول الإسلام والمؤمنين به إلى الأبد ... وما إلى ذلك .

﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ (١٠) لَا تَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿١١﴾

تُرْجِي : تؤخر ولا تضاجع .

وَتُؤْوِي إِلَيْكَ : تضم إليك وتضاجع .

ابْتَغَيْتَ : طلبت .

عَزَلْتَ : اجتنبت بالزواج .

رَقِيبًا : حفيظاً ومطلعاً .

يكثر إمكان التضاميم أو التظام إلى حد بعيد حيث يتعلق الأمر بأكثر من امرأة ،

ولقد كانت تحت رسول الله - ﷺ - عدة نساء ، وكان من المحذور ، بناءً على ذلك ، أن تشكو زوجاته من عدم التسوية بينهما في حقوق الزوجية ، وبالتالي لا يتمكن - ﷺ - من التفرغ لأداء مهمته الدينية والقيام بأعبائها على أحسن وجه وأكملة ، ومن ثم أعلن الله - سبحانه وتعالى - مقررًا أن أمر النبي أمر خصوصي ، وهو غير ملزم كآحاد المسلمين بالتسوية بين الأزواج ، فإذا ما تعارضت حقوق الزوجية مع حقوق الإسلام ، جاز للنبي أن يفضل الأخيرة على الأولى ، وقد كان الغرض من استثناء الرسول - ﷺ - من القاعدة العامة : الحيلولة دون تولد العقلية الاحتجاجية في زوجاته الطاهرات .. بيد أن الرسول - ﷺ - لم يستعمل هذا التخيير عملياً إلا في القليل النادر !

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِينَ إِنَّهُ وَلَئِكَ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَفْسِدِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۚ إِن تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۚ ﴾

غَيْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ : غير متظرين نضجه واستواءه .

فَانتَشِرُوا : فتفرقوا ولا تمكثوا عنده .

سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا : حاجة ينتفع بها .

في معرض بيان الأحكام الخاصة برسول الله - ﷺ - تم إرشاد المسلمين هنا إلى

آداب سامية لا بد من مراعاتها في حياتهم الاجتماعية ، فيجب ألا يدخلوا بيوت الآخرين إلا بعد الاستئذان ، وإذا دعاهم أحد لتناول الطعام في منزله أو لأي غرض آخر ، فلا يطيلوا المكث عنده إلا بقدر الحاجة ، وليعودوا أدراجهم فور تفرغهم من ذلك ، وليجتنبوا الخوض في الأحاديث غير الضرورية فيما إذا توجهوا لزيارة بعض إخوانهم ، وإن كان الأمر يتعلق بالنساء ، فليؤدوه من وراء حاجزٍ وحجابٍ .. إلخ.

وفي الحياة الاجتماعية ينبغي على كل فردٍ ألا يضع نصب عينه مجرد رغبته أو حاجته الذاتية وحدها ، بل عليه أن يأخذ في اعتباره دائماً ألا يتسبب سلوكه في إلحاق الأذى أو الضرر بغيره ، ولا تكون أحاديثه غير الضرورية مضيعة لأوقات أخيه الثمينة!!.

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

كان الرجال ، بموجب الآية السابقة (٥٣) قد نُهِوا عن مخاطبة أزواج الرسول مباشرة - أي وجهاً لوجهٍ - وأمروا بالتحدث إليهن من وراء حاجزٍ وحجابٍ ، وقد جاءت هذه الآية (٥٥) تستثني المحارم من الرجال والنساء من وجوب الاحتجاب من بعضهم ، وسيندرج تحت قائمة الأقارب المذكورين هنا تلك القرابات التي تدخل في حكمهم ، وهذا التوجيه القرآني قد سبق ذكره بمزيدٍ من التفصيل في الآية (٣١) من سورة النور .

وخلاصة كل الأحكام الشرعية هي: أن كل إنسانٍ - ذكراً كان أو أنثى - يجب أن يكون قلبه مفعماً بخوف الله وتقواه ، ويهارس حياته آخذاً في حسبانته أن الله - عز وجل - يراقبه كل حينٍ وأن!

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥٦ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ٥٨ ﴾

يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ : يشنون عليه بإظهار شرفه وتعظيم شأنه ﷺ .

بُهْتَانًا : فعلا شنيعاً أو كذباً فظيعاً .

لقد بُعث رسول الله - ﷺ - لإظهار دين الله في هذا العالم، وإن العبد الذي ينهض لعملٍ مقدسٍ كهذا - يحظى ولا ريب - بتأييدٍ كاملٍ شاملٍ من الله وملائكته ، وبالتالي يكون مسيرته مسaireً لله وملائكته، والإعراض عنه إعراضاً عن الله وملائكته .

وإن الذين تناولوا رسول الله بصنوف الأذى ، كان في حسابهم أنهم إنما يؤذون أحد البشر، وغاب عنهم أنهم يؤذون في الواقع ممثل الله، والذين يتناولون ممثل الله بالأذى ، فإنما يجعلون من أنفسهم ملعونين عند مالك الكون إلى أبد الآبدين !

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٩ ﴾ * لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاجُّوْكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ٦٠ ﴾ مَلْعُونِينَ ٦١ أَيُّنَّمَا تُقْفُوا أَخَذُوا وَقَتْلُوا تَقْتِيلًا ٦٢ ﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٦٣ ﴾

يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ : يرخين ويسدلن عليهن .

جَلَابِيهِنَّ : ما يسترن به كالملاءة .

وَالْمُرْجُفُونَ : المشيعون للأخبار الكاذبة .

لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ : لنسلطنك عليهم .

تُفْقُّوا : وجدوا وأدركوا .

كيف تخرج المرأة المسلمة ، فيما إذا أُلجأتها الضرورة إلى الخروج من بيتها ؟ ينبغي لها أن تخرج وهي مرتدية لباساً سابغاً يكون في ذاته إعلاناً صامتاً بأنها امرأة نبيلة ومتعففة ، وأنها إنما خرجت لغرضٍ جادٍ وليس للتسلية ، وإن المشية الوقورة المحتشمة ، وكون البدن مغطى بالمحفة أو البرقع لمن علامات تلك الجدية والاحتشام والوقار ، والحقيقة هي أن المرأة إذا ما خرجت سافرةً متبرجةً فكأنها تدعو الآخرين إلى التلفت نحوها وتعقبها بالنظرات الجارحة والتعليقات الماجنة . وأما إذا خرجت غير سافرة ولا متبرجةً فكأنها تقول للآخرين بلسان حالها : إنما أنا خرجت لأمرٍ يهمني ، وليس لي معكم من شأنٍ !!

ولعل المراد بـ "مرضى القلوب" هنا هم اليهود، إذ أنهم هم الذين كانوا كثيراً ما يؤذون المسلمين والمسلمات كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وهم الذين كانوا قد قُتلوا أو تم نفيهم عن المدينة وضواحيها وفق التحذير المذكور أعلاه!!

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝١٠١ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝١٠٢ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَخْرُجُونَ فِيهَا وَلَا تَصِيرًا ۝١٠٣ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۝١٠٤ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ۝١٠٥ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ عَذَابًا عَظِيمًا ۝١٠٦﴾

يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ : يرخين ويسدلن عليهن .

جَلَابِيَهُنَّ : ما يسترن به كالملاءة .

وَالْمُرْجِفُونَ : المشيعون للأخبار الكاذبة .

لِنُغَرِّتَكَ بِهِمْ : لنسلطنك عليهم .

تُقْفُوا : وجدوا وأدركوا .

إن السؤال عن وقت قيام الساعة على التحديد لا يعني أنهم لم يكونوا مؤمنين بقيام الساعة أصلاً، فالواقع أنه لم يكن استهزاءً بالقيامة، بل بالذي جاء يخبر عن القيامة وينذر من أهوالها . إنهم لم يكونوا منكرين للقيامة في ظاهر الأمر، وإنما منكرين لنوعية القيامة تلك، التي كان ينبتهم بها رسول الله وأصحابه .

وكان خطوهم الحقيقي يكمن في أنهم قد اعتبروا رؤساء قومهم كبراء، ولم يعتبروا الرسول كبيراً؛ مما جعلهم يعدون حديث كبرائهم القوميين جديراً بالاعتبار، ويعدون حديث الرسول غير ذي قيمة ولا جدير بالاعتبار، ومن ثم فحين تنكشف عليهم الحقيقة يوم القيامة، يندمون أشد الندم قائلين : يا ليتنا أدركنا الفرق بين الكبرياء الزائف والكبرياء الصادق، ولم نكن قد ضللنا وانحرفنا عن السبيل منخدعين بهريق الكبرياء الزائف !!

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١٥﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١٦﴾

وَجِيهًا : ذا جاه وقدر مستجاب الدعوة .

قَوْلًا سَدِيدًا : صواباً أو صدقاً أو قاصداً إلى الحق .

ما المراد بالنهي عن إيذاء "الرسول كاليهود الذين آذوا رسولهم موسى" ؟

يمكننا أن نفهم ذلك في ضوء واقعة رواها الإمام أحمد ، نقلًا عن عبد الله بن مسعود قال : "قسم رسول الله - ﷺ - ذات يوم بين الناس مالا ، فقال رجل من الأنصار : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة" ، ولما ذكر ذلك للنبي - ﷺ - قال : "رحمة الله على موسى ، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر" ^(١).

الكلام نوعان ، سديد وغير سديد . أما الكلام السديد فهو الذي يطابق الحقيقة كل المطابقة ، والذي يكون مبنياً على التحليل الواقعي ، مصحوباً بالدلائل القوية الصلبة ، وأما الكلام غير السديد فهو - بالعكس - الكلام الذي لا يراعي الحقيقة ، وإنما يقوم على أساس من الظن والتخمين ، والذي لا يعدو كونه رأياً ارتآه صاحبه ، دون أن يكون تعبيراً عن الحقيقة الواقعة . إن النوع الأول هو كلام المؤمن ، والنوع الأخير هو كلام المنافق !!

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ٧٦ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٧٧ ﴿

عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ : التكليف من أوامر ونواهٍ .

(١) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ، ص ١١٦ .

فَأَيُّنَ : امتنع .

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا : خفن من الخيانة فيها .

المقصود بالأمانة: الاختيار. وإنما عبر عن الاختيار بلفظ الأمانة؛ لأنه ودیعة من الله خوّلها إلى الإنسان على سبيل الابتلاء لفترة محدودة من الزمان؛ حتى يأخذ الإنسان نفسه بطاعة الله تعالى بمحض إرادته، والأمانة، بمعنى آخر، هي أن نقوم على أنفسنا ونتعهدا كنائين عن الله، فنفعل بها ما يفعل الله بالنجوم والكواكب وسائر موجودات هذا الكون الفسيح، أي نخضع أنفسنا بإرادتنا واختيارنا لسيطرة الله المطلقة.

لا حاكم في هذا الكون إلا الله، وكل ما عده محكوم، ولكن شاءت إرادة الله - سبحانه وتعالى - أن يخلق كائناً حراً يمثّل لأمر خالقه باختياره الذاتي، وبدون أي قهر أو إجبار خارجي. وقد كانت هذه الطاعة الاختيارية بلاءً جد عظيم؛ عجز عن تحمل أعبائها حتى السماوات والأرض والجبال، ولكن الإنسان أخذها على عاتقه رغم خطرها الشديد. وقد صار الإنسان بذلك أميناً على أمانة إلهية في هذه الأرض. وهو الآن مطالب بأن يفعل بنفسه ما يفعله الله بالأشياء الأخرى. وهو مكلف بتنفيذ أحكام الله على نفسه بنفسه. إن الإنسان في حالة امتحان، وهذا العالم الراهن هو بالنسبة إليه قاعة الامتحان الفسيحة.

وهذه الأمانة مسئولية جسيمة بالغة الخطورة؛ لأنها مناط التكليف، وعليها تترتب مسألة الثواب والعقاب، وبما أن المخلوقات الأخرى مجبورة مقهورة، لا تواجهها مسألة الثواب والعقاب. أما الإنسان فلكونه مختاراً حر التصرف يستحق الثواب أو العقاب بحسب عمله.

وقد روي عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أنه لما سأل الله آدم - وقد عرض عليه الأمانة بعد عرضها على السموات والأرض والجبال وإبائهن عن حملها - قائلاً: "هل أنت آخذ بما فيها"؟، قال آدم: "يا رب وما فيها"؟، قال: "إن أحسنت جُزيت، وإن أسأت عُوقبت"!!^(١).

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير، ٣/ ١١٧.